مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:01 (مـــاي 2024) ص 945– 956
ISSN: 2335–1381 EISSN: 2602–5949 Legal Deposit: 2013–6352

قيم التعايش في الفضاء الصحراوي ضمن ثقافة الفُقارة

The Values of Co-existence In The Saharan Space Within The Foggara Culture

سماح حبطة
Habta Samah
جامعة باتنة1 (الجزائر)، safa.louji2014@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/03/08	تاريخ القبول: 2023/03/25	تاريخ النشر: 2024/05/16

الملخص:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى تناول إشكالية مرتبطة أساسا باستحضار واحدة من الفضائل الهادفة التي تنشدها الإنسانية قاطبة وتستدعيها كمطلب إنساني يتحقق حضوره بالفعل وهو ما تعلق بفضيلة التعايش، وما تحمله هذه القيمة من كرم وتضامن وتآزر، بل ومقاسمة من خلال تكثيف الجهود لساكنة الصحراء تحديدا، ضمن ما يعرف بنظام الفُقارة لغرض تطويع الأراضي الزراعية في منطقة الصحراء كتِقَنية يعتمدها أهاليها تستدعي تحقيق العيش الكريم في ظل تحديات البيئة الصحراوية وجهامة الطبيعة فيها، هذا الأمر الذي أدى إلى التفكير – منذ القدم إلى يومنا هذا– في ابتكار هذه التقنية كخصوصية يعتمدها ساكنة بعض المناطق الصحراوية الجزائرية –على سبيل الحصر، ولكن ليس الغرض من هذه الدراسة هو تناول هذه التقنية في حد ذاتها بقدر ما هو تحديد للجانب الاجتماعي والثقافي الذي يلامس جانبها القيمي.

الكلمات المفتاحية: التعايش، قيمة، إنساني، ثقافي، فُقارة.

Abstract: The Values of Co-existence in The Saharan Space Within The Foggara Culture Through this research paper, we aim to address an issue primarily related to a virtue universally sought and called for as a human requirement, which is “coexistence”. This value embodies generosity, solidarity and mutual support, through intensifying efforts for the inhabitants of the Sahara, specifically within the framework of the technique called" Foggara system”, in order to adapt agricultural lands in the Sahara, attempting to achieve a decent living in light of the challenges of the Sahara environment and its cruel nature. However, the purpose of this study is not to focus on this technique itself as much as it is to identify its social and cultural aspects.

Keywords: Co-existence, Value, Humanity, Culture, Poverty.

المؤلف المرسل: حبطة سماح، **الإيميل:** yazid.samah2018@gmail.com

1. مقدمة:

لا مشاحة من أن الإنسان مدني بالطبع يعيش في جماعة فرضتها التطورات الحاصلة في المجتمع الإنساني، وخاصة في الصحراوي منه –تحديدا– وما تحمله الصحراء من معوقات بيئية قاسية ومناخ صعب في آن، هذه الصعوبة والقساوة في هذه الأرض الجذباء لم تجعل الرجل المنتسب لها يبرح أرضه ومسكنه وعشيرته المنتمي إليها، بل سعى إلى استحضار الوعي الجماعي بضرورة التفكير في آليات تحول دون التفكير في الهجرة إلى المناطق الجبيلة والسهبية الخصبة أو حتى الساحلية، لتفرده بالانتماء اللصيق بهذه البيئة رغم تعذر العيش فيها، الأمر الذي استدعى ساكنة الصحراء إلى ابتكار سبل وأساليب وطرائق استقراره فيها، ولا يتحقق هذا الاستقرار داخل هذا المناخ الوعر إلا بتوفر الماء، الذي يعد شريان الحياة.

لكن إشكالية توفير المياه هذه شكلت عوائق ومحاذير استوجب مجاوزتها كمجهود مضاعف داخل هذه البيئة تحديدا، من خلال السعي المستمر لإيجاد حلول لهذه المعضلة التي تكتنفها جملة من الأخطار من حيث شح الغيث فيها والحرارة المرتفعة، والنظر إليها كصراع بينه وبين الطبيعة القاسية التي حتمت عليه الائتلاف والانسجام معها كنوع من المهادنة، والتوافق لتحقيق أغراض مرتبطة بسبل العيش الكريم داخلها.

وعلى هذا الأساس أوجد الرجل الصحراوي في جنوب الصحراء الجزائرية طرق لتطويع بيئتها بما يتماشى ومتطلباته الحياتية واليومية في مجال الزراعة باعتبارها سمة حضارية وإنسانية وهي نوع من التحديات القائمة فيها لا يمكن إغفالها ولا التفريط فيها من خلال التفكير في طرق للسقي، ونقصد هنا نظام الفقارة الذي يعد نمطا مغايرا عن أنماط الري الأخرى، لخصوصيته في منطقة توات الكبرى، وما نود إيضاحه في هذه الورقة البحثة هو التماس البعد الأكسيولوجي كتعايش ضمن هذه التقنية.

إشكالية الدراسة: من خلال التمهيد السابق يستدعي منا طرح الإشكالية التالية: كيف يتسنى لنا تحديد قيمة التعايش في البيئة الصحراوية بالنظر إلى نظام الفقارة فيها؟ وهل حققت بالفعل هذه القيمة الإنسانية؟

2. أهمية وأهداف البحث:

تأتي أهمية الدراسة من حيث أنها من المواضيع التي لا نجد لها تناولا بشكل مكثف إلا من لدن بعض الباحثين على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم الفكرية من ساكنة الصحراء أهل المناطق التي يتوفر فيها نظام الفقارة، وبالتالي عملنا على تناول هذا الموضوع من زاوية فكرية فلسفية تستحضر فيه رؤية استشرافية تعيد النظر إلى العلاقات التي سادها فيما مضى نوع من التآزر والتلاحم والتعاون في أسمى معانيه في ظل تشيؤ الإنسان

ومادیته وفردانیته وأنانیته في الوقت الراهن، حتى وإن تمت الاستعاضة عنها بأساليب السقي المتطورة عوض هذه التقنية العتيقة التي لها أبعاد معنوية أكثر منها مادية ملموسة.

3. ضبط المفاهيم والتصورات:

1.2مفهوم التعايش:

على المستوى اللغوي: عَايَشَه: عاش معهُ، عيَّشه :أعاشه، وتعَايَشُوا :عاشوا على الآلفة والمَوَدَّة(...) (إبراهيم، 2004، صفحة 639)

فمفهوم التعايش"**Co-Existence**"من تعايش تعايشا فهم متعايش، وتعايشوا، أي عاشوا على الألفة والمودة. والتعايش الاجتماعي، يعني أن المجتمع يعيش أهله في وئام، رغم تعدد فئاتهم، وأعراقهم، وأديانهم، ومصالحهم، ويقوم التعايش على احترام الآخرين وحرياتهم والوعي بالاختلافات بين الأفراد والجماعات اطراف والقَبول بها، وتقدير التنوع الثقافي، ولأن التعايش هو تفاعل بين طرفين وأكثر، فهو يعني استعدادا من عدة أطراف لتطوير عيش مشترك يسوده الحوار والتفاهم" (رضوان، 2022، صفحة 13) من خلال التعريفين السابقين لمفردة التعايش يمكن القول أن له جذورا تاريخية ممتدة في الحقبة اليونانية القديمة، وأصبح أكثر تداولا في العصر الحديث ضمن ما يعرف بحركة الإصلاح الديني...واتسع مفهومه في القرن العشرين أكثر لمجابهة أشكال التعصب والعنف والصراعات المذهبية والثقافية واللغوية... ولكن ما يهمنا في هذا الموضع هو إدراجه على المستوى الضيق ضمن جغرافية محددة في الصحراء الجزائرية، ولكن كبعد أوسع ضمن جغرافية إنسانية ممتدة تتضح معالمها في متن هذه الدراسة، قائمة على العطاء والمودة وحسن الجوار والتواجد والاشتراك كأطراف متعايشة معا في ذات المكان والزمان والاستمرارية في الحياة.

2.2 مفهوم الفُقارة:

وضع ابن المنظور في لسان العرب لفظة فقارة وبيّن أن معناها يؤدي إلى معنى الفقر، وهذا ربما يكون بعيدا نوعا ما عن المعنى المقصود فيها تحديدا، إلا إذا ربط المعنى الذي أورده ابن المنظور من حيث حالة العوز والافتقار التي وجد الناس أنفسهم عليها إلى توفر الماء مما حتم عليهم اتخاذ الأسباب للتفكير في حل ناجع للحد من هذه الظاهرة الطبيعية المتعلقة بشح المياه عن طريق حفر الفقارة. أما في القاموس المحيط للفيروز أبادي فقد ورد اللفظ "فقارة في سياق الجمع فقال: فقار وفقرات، وهي عظمة الظهر وهو ما تعلق بفقرات العمود الفقري فالفقارة بهذا الشكل شبيهة من حيث بنيتها وكمنجز بالعمود الفقري، وبالعودة إلى ما قدمه ابن العرب ضمن مادة فقر، بقوله "فقر الأرض وفقّرها: الحفرة، وركيّة فقيرة مفقورة، والفقير، البئر التي تغرس فيها الفسيلة ثم يكبس حولها بثُرنوق

المسيل، وهو الطين(...) فتلك البئر هي الفقير، وفقير النخلة: حفيرة تحفر للفسيلة إذا تحولت لتغرس فيها، والفقير الآبار المجتمعة الثلاث فما زدت، وقيل هي آبار تحفر وينفذ بعضها إلى بعض وجمعه فُقُرٌ والبئر العتيق (المنظور، صفحة 3446)

وإذا عدنا للمصطلح على ألسنة أهله ساكنة الصحراء (منطقة توات: تقع بالجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية، على أطراف العرق الغربي الكبير بالتحديد في ولاية أدرار، ويسكن *توات* أعراق مختلفة من عرب وأمازيغ...) فالفقارة تنطق فقارة (بنقطة فوق القاف)، وفقر الماجل هو شق تطيين حوافها لجمع الماء، والفقارة هي الآبار المنفوذة ببعضها إلى أن يظهر ماؤها على السطح،(...) هي تتالي الآبار بين كل بئر وآخر، مثل درجات السلم نفق يبدأ العمل فيها من مكان عال ولا يزال ينحدر من أعلى إلى أسفل." (الرحمن، 2013، صفحة 145)

هكذا يتضح أن المصطلح عند أهله بخاصة يتماشى مفهومها ونمطها المعتمد فيها كوسيلة لاستخراج المياه الباطنية من خلال العديد من الآبار المحايثة بعضها إلى بعض باعتماد أنفاق أرضية لذلك تنعت، بالأنفاد أو النفاد.

4. مقاربة تاريخية حول نظام الفقارة:

يعد نظام الفقارة وما جاورها من تسميات نظام واحد يعود في الأصل إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن المبتكرين الأوائل لهذا النظام هم الكنعانيون حيث ألفى العلماء المهتمين بالدراسات الأثرية على واحدة من الشواهد الأثرية "بعين جيحون الكنعانية"، كذلك وجدت آثارها في سلطنة عُمان، وترجع للفترة عينها، ومما زاد ترسيخ هذه الحقائق تلك الأبحاث التي أجرتها البعثة الأثرية البلجيكية تحت إدارة المهندس "أندري تيفانس (André Stevens)" الذي اكتشف وحدد موقع 20 قناة تعود لهذه الفترة (محمد، 1999، صفحة 61).

من خلال ما لوحظ من جذب وقحط لتصحر أدت بالضرورة إلى ابتكار أساليب ناجعة تحفظ البقاء الإنساني وتضمن الحياة، ثم أن الهجرات المتكررة من المشرق إلى المغرب، كان آخرها هجرة القبائل الهلالية وانتشارها على كامل الأراضي الرعوية ومناطق المياه في المغرب الإسلامي، فإن أصحاب التقنية حملوها معهم ونشروها في المناطق الجذبة التي استقروا بها لعلمهم بوجود جيوب مياه جوفية يمكن استغلالها، لكن للأسف الشديد، فإن المعطيات المتداولة والمتعلقة بالأساطير ما زالت ترى أن الفقارة تعود إلى العصر الوسيط، وأن المهندسين المنجزين لها من أصل يهودي عاشوا في صحراء قاحلة، أو أن نشأتها مرتبطة بهروب بعض المطلوبين من الحكام والسلاطين نظرا لبعد الإقليم عن مركز الحكم ووقوعه في قلب الصحراء. وتبقى بذلك هذه المعطيات محل جدال ونقاش بخصوص صحتها من زيفها (موساوي، 2007، صفحة 19).

لم يقتصر الحكم على أصل هذا النظام المائي في الجزائر أو المغرب العربي الذي غالبا ما ينساق أبناؤه وراء الكتابات الموجهة من البعثات الأجنبية ثم يتبنونها كمعطيات تاريخية، يعمموها في كتاباتهم، وينسون ما لهم إلى الغير، بل أن المشارقة أيضا يرجعون أصل الفقارة إلى بلاد فارس استنادا إلى ما جاء على لسان الملك الآشوري "سرجون الثاني"(721-705ق. م) حيث يذكر أنه تعلم سر جلب الماء الجوفي إبان حملته ضد أوراتو الفارسية (موساوي، 2007، صفحة 19)، وبالتالي يتضح هنا من خلال هذا الأمر المتعلق بالجذور التاريخية لنظام الفقارة امتدت طولا سواء في بلاد المغرب الإسلامي، أو في بلاد فارس وإن كان هنالك تمايز من حيث بنيتها وهيكلتها تاريخيا.

كما يرجع البعض الآخر أصل الفقارة إلى الفترة الرومانية في القرن الأول قبل الميلاد، بينما تاريخها عند العرب معروف (محمد، 1999، صفحة 15)، هذا التواشج التاريخي يؤكد على عراقة هذا النظام الضارب في عمق تاريخ الحضارات الإنسانية، كما أن الفتح الإسلامي كان دافعا قويا وعاملا أساسيا في تطور أنظمة الري، حيث قام العباسيون بتأهيل وتنظيف القنوات القديمة، واستخدموا قنوات جديدة حملت معها مياه الفرات إلى أرض الجزيرة العربية ومياه دجلة إلى بلاد فارس بالإضافة إلى الشبكة الداخلية التي نظمت توزيع المياه في بلاد الرافدين وبادية الشام (موساوي، 2007، صفحة 20).

وفي الأندلس وبالإضافة إلى التطورات الكبيرة التي عرفتها نتيجة تطور الحريات الفكرية التي كان يتمتع بها الفنان العربي، للتزاوج الذي حدث منذ الفتح الأول، وزيادة على تنظيم الخلفاء لطرق الري فقد أنشئوا محكمة للمياه في مقاطعة بلنسية (Valencia) سنة 962 م خلال حكم الخليفة عبد الرحمن الثالث لفض النزاعات والخلافات التي تنشأ عن تطبيق نظام الري في بلنسية من السواقي الثمانية المتفرعة من نهر توريا" (موساوي، 2007، صفحة 20) فالحضارة في بلاد الأندلس أبانت عظمة الإنجازات وبخاصة جمالية قصر الحمراء وبساتينها الغناء التي تحاكي إبداعية مهندسي تلك الحقبة الزمنية المتجذرة والمتأصلة في وقتنا الراهن.

أما في المغرب العربي، فإن الهجرات السابقة عن الفتح الإسلامي وخاصة وفود العدد الكبير من المهاجرين من جيش زنوبيا ملكة تدمر، بعد سقوط مملكتها في القرن الربع الميلادي، وكجيش مساعد إلى مشارف الصحراء الجزائرية، وخاصة للدفاع عن المدن الشمالية حيث شيدوا معظم المدن التي تقع على سفوح الأطلس الصحراوي، لا غرابة أنهم هم من نقل تقنية بناء الفقارة خلف حدود الجيش الروماني، وبعيدا عن سيطرته وفرارا من القهر والعبودية (موساوي، 2007، صفحة 22)

استناد المسلمين على هذا النموذج في عملية السقي، رغم ما يتخللها من عوائق وتكاليف مادية معتبرة، وجهد جماعي لا يمكن وصفه، إن هو إلا استجابة للأوامر وتطبيقا للتوجيهات الربانية التي وردت في نعم الله عز وجل وفضله على عباده، إذ يقول عز وجل في محكم تنزيله" وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من االسماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين" (صفحة 263) وقوله تعالى أيضا "وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يومنون" (صفحة 297).

إنطلاقا من هذه الآيات اعتبر العمل على توفير الماء وتوفره دليل على خصوبة الحياة وانتعاشها، فغدت بذلك ما يعرف بالتويزة وهي سمة العمل الجماعي التطوعي وصفة من الصفات الحميدة التي يمارسها ساكنة الصحراء تحديدا، وبخاصة تقنية الفقارة هذه التي تعتمد على شق الصخر ومد القنوات في منحدرات اتجاه البساتين والواحات هي ابتكار من الإنسان الصحراوي الذي جابه قساوة وخشونة البيئة الصحراوية والذي خطط لحلول ناجعة تحمل خصوصية المنطقة، فقد سعى ساكنة المناطق الصحراوية لتقصي بدائل جديدة لإرواء الأرض الصحراوية القاحلة فاهتدوا إلى حفر الآبار العميقة لغرض الوصول إلى الماء، والتحكم في طرائق لنقله عبر قنوات باطنية بما يشبه الأقنية والأفلاج المشرقية، وأطلقوا على هذه الطريقة اسم الفقارة (موساوي، 2007، صفحة 86).

فأينما ينوجد الماء تنوجد الحياة والخصوبة فيها، حيث ذكر المؤرخ والعلامة ابن خلدون وهو الأدرى بأنساب الأمازيغ أن "فواكه بلاد السودان تأتي من توات وتيكوراين ووركلان (...)" (خلدون، 1981، صفحة 93). وهو دليل على اعتماد هذه التقنية التي عززت زراعة النخيل في منطقة توات بأدرار تحديدا وكنموذج بل، منحت قوة دافعة للتجارة الخارجية وهذا ما أورده ابن خلدون في كتابه العبر بقوله: أن "فواكه السودان كلها من قصور الصحراء (الجزائرية) مثل توات(...)" (خلدون، 1981، صفحة 142) فانتعاش الزراعة في منطقة توات بحسب ابن خلدون تجاوزت الاكتفاء الذاتي إلى نوع من المبادلات التجارية باتجاه السودان.

وبالنظر إلى الأسماء المتاخمة للفقارة بحسب كل بلد ففي أدرار بالجزائر تسمى الفقارة، المغرب بمراكش الخطارة، أما في تونس في منطقة المنشية–القصار تنعت بإنقولا–خريقا، وأما في المدينة المنورة بالحجاز تسمى الخيف–الشراج–السرب–الكضنة، وفي عمان الفلج، أما في الشام الأقنية، وفي العراق الكهريز، أم في أفغانيستان تسمى خيراس، وفي إيران قناة، ووفي إيطاليا أنقريطاطي، وفي اليمن صهريج، ما يؤكد على أن نظام السقي هذا نظام عالمي له أبعاد اقتصادية واجتماعية ضاربة في عمق التاريخ الإنساني من هنا يمكن القول أن مجمل الحضارات الإنسانية التي انتشرت في المشرق الإسلامي تبين أن مد القنوات لاستخراج المياه الجوفية الموغلة في أراضيه تميز تلك الحضارات على مر العصور المتعاقبة فيها.

5. البعد الأكسيولوجي ضمن تقنية الفُقارة:

1.4الأبعاد الاجتماعية الثقافية للفقارة:

أ. البعد الاجتماعي:

بالنظر إلى الدور البارز الذي حققه نظام الفقارة على المستوى الاجتماعي فقد رسخ تلك العلاقات الاجتماعية لأبناء المنطقة التي اعتمدت فيها كتقنية فمنحت بذلك الخصوبة للأرض والخير لساكنة الصحراء بفضل رباني "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض يخرج به زرعا مختلف ألوانه" (صفحة 423)، وبمنحه القدرة والتمكين والتسخير للإنسان الصحراوي –على سبيل الحصر– لمجابهة تلك الصعوبات في أرض جرداء، مما دفع بسكانها إلى التفكير في اعتماد طريقة للسقي على الرغم مما يتطلبه من جهد ومشقة وعناء من جهة ومن جانب مادي من جهة مغايرة، الأمر الذي استدعى العمل في إطار تشاركي، تضامني لإدراكهم القوي الذي أكد لهم أن الفقارة بالنسبة لهم هي شريان الحياة ولهذا استوجب منهم التعاون والتكامل فيما بينهم للحفاظ عليها.

هناك علاقة تواجش متينة بين فلاحي المنطقة من جانب التآزر والتآخي والتعايش وبين نظام الفقارة الذي رسخ تلك العلاقة وهذا للصالح العام بما تحققه الزراعة من منفعة على المستوى الضيق أو على المستوى الفسيح، من هذه العلاقة التبادلية ينشأ ما يمكن وسمه بالتلاحم والتضامن الجماعي، انطلاقا من المحافظة على هذا المنجز كتراث مادي يحاكي الممارسة التشاركية متجسدة في فعل التويزة المألوفة عند أهل منطقة توات تحديدا، بل أكثر من ذلك تدعمت برباط الأخوة والمآزرة واللحمة الإنسانية في بعدها الأخوي بل أكثر منه حسن الجوار كقيمة أخلاقية واجتماعية وإنسانية، وكنوع من الإحسان في أبهى تجلياته من حيث التعاملات التي تراعي تلك العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد.

إذا كان مفهوم الجار يحيل إلى المحاذاة في المسكن والإقامة فإنه تعداه إلى المحاذاة والاتصال في العلاقات الجماعية التي متنتها ثقافة الفقارة هذه كتجسيد لفعل التكامل المستند إلى الثقة كل من جانبه وبحسب إمكاناته المتاحة. هذه الرمزية القائمة على الألفة والمساندة لا يمكن التقليل من أهميتها ذلك أن "عمل التويزة لا يقتصر على أصحاب الفقارة إذا كان الضرر جسيما، لا فرق بين من يملك ومن لا يملك نصيبا في الفقارة، فالعمل إلزامي على كل القاطنين وأثناء العمل يتخللها قرع الطبول وإطعام الطعام حفاظا على ديمومة العمل اجتنابا للملل(...) وهذا نوع من التآزر والتعاون بين سكان المنطقة(...)." (موساوي، 2007، صفحة 72)، فالتعاون في بعده القيمي ما هو إلا تناغم وانسجام لقيادة جماعية فاعلة بعيدا عن شتات الرأي ونبذ القيادة الفردية الآمرة، وهذا كله لغرض تحقيق المنفعة الجماعية كواجب إنساني تُلتمس من خلاله الإعانة في أسمى معانيها تستقطب البعد الإيجابي فيها فـ"(...)

فلم تزل فكرة التآلف والتناصر تخامر عقول البشر من عهد نشأة الإنسان في هذه الأرض من حيث ما في طبعه من اتساع المطمع وقلة المقدرة فلذلك كان بطبعه محتاجا إلى إسعاف بعضه بعضا(...) وبذلك كان مدنيا بالطبع: أي محتاجا إلى التجمع والتحبب(...)" (محمد الطاهر، 1985، صفحة 104)، يمكن القول بخصوص قيمة التعاون باعتبارها ضرورة وجودية لا يمكن إغفالها ولا إقصاؤها لأنها جبلة إنسانية.

وتتجلى أيضا الروح التضامنية فيما تعلق بالفقارة–في بعدها الاجتماعي دائما– أنها تمنح الأحقية أيضا لغير مالكيها في الانتفاع من مياهها سواء لغرض المشرب أو اتخاذه لأغراض شخصية متعلقة بإرواء الماشية، وهم بدورهم يسارعون في مد اليد التطوعية إذا ما استدعي الأمر لذلك خدمة لهذا المكسب الجماعي، ويتعداه أيضا إلى تخصيص جزء من مائها لعابري السبيل خارج أسوار المنطقة الصحراوية أطلق عليه تسمية "ماء السبيل".

يمكن استقطاب الأذهان إلى أنه لا يمكن النظر إلى نظام الفقارة على المستوى الاجتماعي والإشادة بها في بعدها القيمي باعتبارها أمرا مثاليا يخلو من النزاعات بين ساكنة المنطقة بل في أحايين كثيرة تتخللها "نزاعات متولدة عن الفقارة.

هذه الخلافات والنزاعات تنجم عن بعض ما يصدر من ممارسات تتناقض مع المتفق عليه من قواعد تضبط التعامل، فنرى أن المجتمع التواتي–كنموذج– أعطى أهمية كبيرة لهذا الجانب المتعلق بالفقارة فجند لهذا الغرض العقلاء والعلماء والمشايخ من أجل فض النزاعات التي تحدث غالبا حول هذا المرفق الحيوي(...)" (موساوي، 2007، صفحة 74)، ولهذا استوجب الاحتكام إلى ما نصت عليه الشريعة الإسلامية كمنظومة قيم وضوابط يُستند إليها وما أبانه العرف حول القواعد المتعلقة بالفقارة من خلال إنتقاء آلة الكيل نفسها كوحدة لقياس الماء ضمن العمليات القائمة في هذه التقنية من بيع وكراء وتمليك.

هذا الأمر موكل لكيال الماء الذي تسند إليه مَهمة تحديد نصيب كل فرد من ماء الفقارة، إضافة إلى توليه قياس منسوب الفقارة من عام لتقصي مدى امتلائها من نقصانها، وله نصيب من خيرات الأرض المزروعة والمروية من مياه الفقارة سواء من تمور الواحات أو من القمح والشعير..والاستعانة أيضا بالكيال باعتباره الأمين والخبير بأمور الفقارة على دراية بأسرارها وأساليب الحساب فيها والخطوط التي عليها، موكلة له أيضا مهمة توزيع وتقسيم المياه بمعية أصحابها، أم بالنظر إلى الجانب القانوني كتشريعات قانونية فقد وضعت للبت في مثل هكذا نزاعات، وبخاصة أنه في الوقت الراهن أولت الدولة اهتماما كبيرا بتنمية الاستثمار في الجنوب وفي الزراعة الصحراوية تحديدا وهذا لا يتأتى إلا بالمحافظة على الفقارة صيانة وحماية واهتماما ومؤاخاة تجنبا لأساليب الاحتيال والخبث.

على هذا الأساس استوجب الحفاظ على تراثنا الحضاري وذلك تخليدا وتمجيدا لألمعية أجدادنا القدماء كإبداع قديم كان و لازال مصدر عيش لسكان القصور بمنطقة أدرار–تحديدا– التي تعد ميكانيزم قديم في توزيع المياه الجوفية، بل يتجاوز ذلك باعتباره نظاما اجتماعيا ساهم كثيرا في إرساء مبادئ وقيم من خلال خلق نظام و اتفاقيات تكفل كل ذي حق حقه، محافظة بذلك على التوازن والتماثل الشامل داخل المجتمع.

ب. البعد الثقافي:

يستند البعد الثقافي في نظام الفقارة لساكنة الصحراء إلى ثلاثة مرتكزات، فهي ليست بمنأى عن ذلك الاهتمام والتقدير الذي يُلتمس في دور العبادة –كشأن مقدس–، سواء في المدارس القرآنية أو المساجد فلا يمكن المساس بها أيضا من تشويه لصورتها كونها موروث مادي له خصوصيه أو تخريبها وتلويث مياهها.

فالفقارة بذلك ذات مدول ثقافي وهذا ما بينته الدلائل الأثرية العديدة في استخدام هذه التقنية، كمحاولات حثيثة للحد من ظاهرة التصحر والجفاف، بل تعد كمورد مائي هام لأهالي المنطقة الصحراوية وأهم منهل مائي يعول عليه الفلاح في أساليب الزراعة والفلاحة التقليدية، ما جعلها تصنف كتقنية رائدة في هذا المجال ضمن المعالم الأثرية والتراث المادي، تتوارد عليها أجيال لاحقة، ما يستدعي التعريف بهذا الأثر والإرث الحضاري القديم بمنحها واجهة تليق بها، كونها مصدر حياة لساكنة الصحراء، كما كان لهذا النظام الأثر البالغ في زرع روح التعاون و التفاهم، وغرس مبادئ العدالة و المساواة بين أفراد المجتمع ، ووضع اللّبنات الأولى في سياسة الترشيد والعقلانية في توزيع وتسيير الثروة الطبيعية التي منَّ الله سبحانه و تعالى على عباده، ألا وهي ثروة " الماء" العنصر الفاعل في الحياة، ما يستدعي الحفاظ عليها كموروث ثقافي ذو خصوصية متفردة، وكهوية"وتخصيص مبالغ مالية تدعمها.

تزداد قيمة الفقارة يوما بعد يوم خاصة وأنها نظام شامل يحفظ أغلى الثروات وأثمنها، ولعل كما يقول العديد من الباحثين ويتوقعون، الحرب الكونية القادمة ستكون على الماء، وباعتبار صحرائنا الشاسعة مخزنا ضخما للمياه الجوفية باعتبار الأمطار التي تصب في الشمال تغور في جوف الأرض لتستقر في انحدارات الصحراء ومنخفضها.

من هنا وجب على الحكومة تسطير برامج حقيقية تكفل حماية هذا الموروث الهام في حياة سكان الصحراء، والذي حافظ على استمرارهم وبقائهم، لما يحويه من أنظمة دقيقة في استغلال المياه، بالإضافة إلى ما ينطوي على هذا النظام من ممارسات سوسيوثقافية(...) التي تعبر عن مدى الارتباط التاريخي لسكان المنطقة بماضي الأجداد(...)" (أحمد، 2018، الصفحات 125–124)، فالإقرار بهذا الموروث يؤكد ويجسد الاعتراف به كفضيلة

تسمو به إلى مصاف الإبداع الإنساني من خلال التمكين الرباني للعقل البشري في التفكير في سبل الإعمار في الأرض.

6. التحديات التي تعترض نظام الفقارة:

على الرغم من الأبعاد القيمية التي التمست فعلا ضمن آلية الفقارة كنظام سقي له أصوله التاريخية كإبداع إنساني وحضاري، ولكن هذا لم يمنع من التماس معوقات حالت دون استمراريتها بالشكل الذي كانت عليه عبر تاريخها التليد "فالمتتبع لحال الفقارة عبر تاريخها الطويل وصولا إلى وقتنا الحالي يلاحظ تراجعا شديدا في الاهتمام بالفقارة ولعل أكبر شاهد على ذلك هو نسبة موت الفقاقير سنويا(...) وهو ما دفع بالسلطات المحلية والوطنية إلى أخذ كافة التدابير للحد من هذا النزيف (...)") جفري(2010, p. 140 ,ولهذا يخشى عليها ساكنة الصحراء في منطقة أدرار تحديدا من اضمحلالها وضياعها، ويرجع ذلك لعدة أسباب، أهمها الاتكال والاعتماد على طرق حديثة ومتطورة في أساليب الري تغني عن طريقة الري العتيقة إضافة إلى وجود عقبات أخرى متمثلة في قلة نزول الأمطار وبخس اليد العاملة التي تسند لها مَهمة صيانة الفقارة، فغدا بذلك مالكي الواحات إلى الاعتماد على المضخات عالية التدفق لاستخراج المياه الجوفية لتسخيرها في عملية سقي بساتين النخيل خاصتهم.

جفاف الفقارة شكَّل قلقا وهاجسا لمالكيها وهذا ما أبانته شهادات حيَّة لمالكيها عبر العديد من البرامج التي تبثها القنوات التلفزيونية الجزائرية، وفي أحايين كثيرة يلجأ ملاك الفقارة إلى رفع شكاوى للسلطات المعنية للبت في أمر بعض الفلاحين المستثمرين الذين ينتهكون حرمة مساحاتهم التي شيدت فيها الفقارات من خلال موضعة مضخاتهم فيها.

وعلى هذا الأساس فالقول بـ "اختفاء الفقارة يعني اختفاء قسم مهم في المنظومة البيئية، الاجتماعية والاقتصادية، ما يعرض المنطقة للتصحر والجفاف، وستختفي مهن نشأ عليها أجيال لقرون من الزمن، مثل كيال الماء، الذي يقسم الماء بالعدل بين فلاحي الواحة، والنفاذ الذي ينجز المسالك بين الآبار وصولاً إلى الواحة، إضافة إلى روح العمل الجماعي في صيانة الفقارة وتأهيلها كل موسم، وفرحة الفلاحين بالغلة والثمار في كل فصل. كل هذا معرض للزوال" (بطاش، 2022) هذه التحديات التي تعترض هذا النظام التليد الضارب بجذوره في تاريخ البشرية وتاريخ صحراء توات بأدرار لكنها تبقى كشواهد عينية تؤكد إبداعية الإنسان الصحراوي في الاستجابة رغم التحديات هذه. غير أنها تتجسم الخطر الذي يكتنفها.

خاتمة

وفي الأخير نخلص إلى نتيجة مفادها أنه يمكن النظر إلى نظام الفقارة كتقنية غير أنها تستوعب أبعاد قيمية فيها، فهي كموروث محلي وثقافة تحيط بمناحي عدة تعمل على الحفاظ على الهُوية والخصوصية الاجتماعية داخل المجتمع الصحراوي كانتماء أفرادها فيه وكأعضاء فاعلين داخله وكوحدة عضوية داخله وكنسق مكتمل في أبعاد قيمية تستنكه طابعه الوجداني والتآزر والتراحم والمساندة والوجدانية تتحقق فيه المصلحة العامة للمجتمع الصحراوي ضمن إطار تشاركي قائم على التعاون، والتكافل الاجتماعي باعتباره سمة مميزة لتعزيز التعايش الإنساني تتجلى فيه خصوبة الأرض الصحراوية الطيبة التي يسود فيها الخير على الجميع، من خلال إسهام الفرد الصحراوي ضمن مجموعته وجماعته التي ينتسب إليها إلى تقوية حبال الوصال تتجلى فيه روح التضامن والتعايش على الرغم من قسوة وصلابة الصحراء بالمعنى العميق لها، فيتجلى مفهوم الإبداع الاجتماعي بعيدا عن الشتات والفُرقة واللامبالاة، وتتجسد هذه القيم السامية فعلا ضمن نظام الفقارة التي تستدعي طقوسا تستحضر بها في عملية حفر الآبار وتميزها كخصوصية لأهالي المنطقة الصحراوية، والعمل على إطلاق العنان لها لتتدفق عى منوالها الطاقات كل بحسب إمكاناته وإسهاماته ويتجلى هذا الأمر تحديدا وبالضبط في طقوس حفر الآبار، وما يستتبعها من مدائح جماعية استعدادا للحفر وبعده، فتقوي بذلك من العزيمة والصبر والتضامن الجماعي يتجاوز فيها كل فرد منتمي إلى جماعته ذاته كشأن خاص من خلال التفكير في الصالح العام تتناقله الأجيال تباعا، حتى وإن كانت هنالك تحديات تعترضها، ولكن وجب التفكير بعقلانية ووعي وهذا ما أبانه الإنسان الصحراوي كعبقرية من لدنه في تطويع وإخضاع الطبيعة القاسية والتكيف مع مناخها الصعب، حتمت عليه التفكير في طريقة ناجعة لإخراج المياه الجوفية من وجودها بالقوة إلى وجودها بالفعل. وعليه فإن الفقارة نظام ثقافي اجتماعي مبدأه التعاون والتآزر الجماعي، ويتجلى ذلك في تقسيم المهام بين السكان. تتجسد فيها روح التضامن القوية بين الأفراد والتنسيق في العمل، وسط أصوات الدف والمدائح يتشارك ويشارك فيها الجميع، فهي بذلك نموذج أمثل للتكافل الاجتماعي والحرس كل الحرس عما يكتنفها من أخطار تحيط بها التي تؤثر سلبا على تدفق المياه إلى الفقارة الذي يعد مكسبا ماديا هاما يضمن العيش الكريم والمستديم رغم ما يعترضها من تحديات كما مر معنا سلفا، ولكن هذا لم يمانع من توجيه الأنظار إليها والتعريف بها على مستوى أرحب كونها في حاجة ملحة لئن تصنف ضمن روائع التراث العالمي المادي منه نظرا لكونها تتواجد فقط بمناطق محددة. وقد صنفت فعلا ضمن التراث العالمي غير المادي للإنسانية قاطبة من خلال تقرير اللجنة العالمية للحفاظ على البيئة لمنظمة اليونسكو العالمية.

الحواشي:

1. ابن المنظور. *لسان العرب*. (تحقيق: علي الكبير عبد الله وآخرون، المترجمون) القاهرة: دار المعارف.
2. ابن خلدون. (1981). *العبر، وديوان المبتدـ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر من ذوي السلطان الأكبر* (المجلد الجزء الأول). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
3. ابن عاشور محمد الطاهر. (1985). *أصول النظام الاجتماعي في الإسلام* (الإصدار الطبعة الثانية). تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
4. أحمد جفري. (أغسطس، 2010). الفقارة نظام السقي الصحراوي العجيب. *مجلة تراث* .
5. السيد رضوان. (2022). *التعايش والتعارف في الإسلام (مفاهيم ميسرة)*. جدة: منظمة التعاون الإسلامي.
6. *القرآن الكريم برواية ورش عن نافع*. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
7. أنيس إبراهيم. (2004). *المعجم الوسيط* (الإصدار الطبعة 4). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
8. حنان بطاش. (08 01، 2022). *روح الفقارة مهددة بالاهمال والمضخات... من يسقي نخيل الجزائر؟*
9. دوارة أحمد. (22 12، 2018). الأهمية السوسيواقتصادية للموروث الثقافي الجزائري "الفقارة أنموذجا". *مجلة تطوير العلوم الاجتماعية* (مجلد 11 عدد 02)، الصفحات 125-124.
10. عربية موساوي. (2007). الفقارة في منطقة توات وأثارها في حياة المجتمع -دراسة تاريخية أثرية-. *أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية* . الجزائر، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
11. علي زرفة محمد. (1999). *الأفلاج-أنظمة الري ومياهها الخفية-* (الإصدار الطبعة الأولى). دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع.
12. محمد بعثمان عبد الرحمن. (ديسمبر، 2013). نظام السقي في الجنوب الجزائري-نظام الفقارة في منطقة توات أنموذجا-. *مجلة كان التاريخية* .